جمالية المكان في الرواية العربية

الدكتور: سمير خالدي
قسم اللغة اللغة العربية
معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي غليزان (الجزائر)

ملخـــص:

يهتم المقال بالتعرض لأحدى الإشكاليات المهمة في الكتابة الروائية والمتعلقة بالمكان الذي تربطه بالإنسان علاقة قديمة بوصفه آلية فنية تساهم في بناء الحدث ومجرياته في النص وكيف استطاع المبدع أن يجسد هذه العلاقة في رواياته؟ حيث اختلفت بين الضيق والاتساع،الواقعية والخيالية،الرمزية والأسطورية، بغية إضفاء جمالية على النص.

الكلمات المفتاحية:
مكان رواية الضيق الاتساع جاذب طارد بنية

Abstract:

This article is concerned with the exposure of one of the most important problems in the writing of fiction and the place where the link with the old man as a technical mechanism to contribute to the construction of the event and its developments and developments in the text and how the creator was able to reflect this relationship in his novels where the difference between narrowness and breadth, realistic and fictional, symbolic and legendary, Aesthetic on the text

مقدمة:

منذ أن ظهرت الرواية العربية عبر مراحلها المتنوعة استدعت حقولا للدراسة، تناولتها من جميع جوانبها المتعددة والمختلفة، فبعضها ركزت على الجانب الإيديولوجي وبعضها الآخر على الجانب الاجتماعي والنفسي. فاتجه النقد الروائي نحو رؤية جديدة تتحلى بالصبغة العلمية والتطبيقية تحكمها قوانين ومصطلحات تحدد طريقة التحليل ومنهجية بإدخال النص إلى المختبر وتشريحه محاولة تشريحه اكتشاف وتفكيك بنيته الداخلية وتفجيرها. فكان لزاما على النقد العربي الاستعانة بهذه الرؤية الجديدة وما تحمله من تيارات ومناهج إجرائية بوصفها أداة يستعين بها في دراسته للنص الروائي الذي ينتمي إلى بيئته وعصره. فمنذ الستينيات والرواية تمر بنقلة أساسية شأنها في ذلك شأن الشعر وسائر أنواع الإبداع من التقليد إلى التجديد.

إن حاجتنا إلى تبين نص الرواية العربية الجديدة مهمة للغاية، نظرا لما تحتويه متونها من اهتمامات ومواقف وآراء وموضوعات تحيل القارئ المثقف على التأمل والتبصر واكتشاف أسرارها، فضلا عن متعتها الفنية وقدرتها على التغيير. ولعل الحداثة والتطور الحضاري اللذين عرفتهما الرواية العربية كانا من بين الأسباب التي دفعت الباحث إلى دراستها ومحاولة الكشف عن أبعادها الجمالية وإبراز قدرة مبدعيها على الخلق.الأمر الذي دفع بالعديد من النقاد الإشارة إلى صعوبة تحديد وتعريف هذه الظاهرة الجديدة في العالم العربي. فهل استطاعت الرواية العربية الجديدة أن تثبت جدارتها في الاختلاف والتطور والإبداع؟ وهل حققت عنصر الجمالية من خلال تنوع وتعدد أمكنتها وحركية شخصياتها.؟

2. المكان وعلاقته بالإنسان:

1.2 ما المكان؟:

إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة وجودية قال تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (سورة البقرة الآية 50) فالوجود الإنساني – خليفة- مرتبط بالحيز المكاني "الأرض" بوصفها مأوى وموطنا ومصدرا لعيشه وقوته. لقد فرض المكان على الإنسان حتمية التنقل والترحال بحثا عن موارد العيش، ليضمن حياته وبقاءه، أمنه واستقراره ومواجهة الموت الذي يتربص به في كل الأوقات والأمكنة، مولدة بداخله إحساسا بالخوف المستمر والدائم، على حد قول الفيلسوف اليوناني: **(أكتيتوس):** " ليست الأشياء هي التي تخيف الإنسان بل أفكاره وتصوراته عن هذه الأشياء."[1] وانطلاقا من عامل الخوف الذي ينتاب شعور الإنسان، احساس يتحرك معه في كل الاتجاهات، بدأت تتشكل شيئا فشيئا الفكر الأسطوري باعتباره أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية بوصفه مفسرا لحياة الإنسان وقوانين الطبيعة وما ارتبط بالغيب، فتشكلت الأسطورة التي: " دفعت به نحو التأمل من أجل الإجابة عن أسئلة مبعثها الاهتمام الروحي فتكون، بطريقة أو بأخرى، أشبه بالنبوءة

التي ظهرت في تراث الإغريق. إذ يحكى: " أنه إذا ما كانت ثمة أية قضية تشغل بال أي إنسان، يجب عليه أن يذهب إلى (دلفي) DELFI مثل ما ذهب **(أوديب)** إليها بحثا عن مصيره. وهناك سيجد الإجابة، ويعرف قدره الذي سطرته له الآلهة، فيظل الإنسان خائفا منها أو على صلة وثيقة بها، بتقديم القرابين والذبائح كي يكسب ودها وغفرانها."[2] فعدت بذلك الاسطورة أحد المشارب الفكرية التي نهم منها العام والخاص في حياته اليومية ووظفها الشاعر والقاص في إبداعاته فأضفت عليه نوعا من الجمالية.

6. تجليات المكان في الرواية العربية:

1.6 المكان في روايات نجيب محفوظ:

إن التطور في شكل و متن الرواية العربية يؤكد على اختلاف الرؤى،ووجهات النظر ومواقف مؤلفيها، الأمر الذي دفع بالعديد من النقاد الإشارة إلى صعوبة تحديد وتعريف هذه الظاهرة الجديدة في العالم العربي. ومن ثمة هل استطاعت الرواية العربية أن تثبت جدارتها في الاختلاف والتطور والإبداع؟ وهل حققت عنصر الجمالية من خلال تعدد أمكنتها وحركية شخصياتها؟

تتواصل التجربة الروائية العربية مع "نجيب محفوظ الذي جاءت نصوصه نموذجا لحالات البحث المستمر والمتواصل عن الذات وتصوير الواقع من خلال الأمكنة المختلفة والمتعددة:"فتجعل هذه الأمكنة من أحداثها بالنسبة للقارئ شيئا محتمل الوقوع، إنها تقوم بالدور نفسه الذي يقوم به الديكور والخشبة في المسرح."[3] إذ تحوم بالشخصيات محاولة دفعها إلى الحركة عبر مجموعة من العلاقات الاجتماعية فكانت أولى كتاباته رواية: (الأقدار) 1939، (كفاح طيبة) 1944، (خان الخليلي) 1946، (زقاق المدق) 1947، الثلاثية: (بين قصرين، 1954، قصر الشوق، 1957، والسكرية،1957)،'الطريق، 1964، الشحاذ، 1967... روايات تصور مرحلة من تاريخ مصر، أيام تواجد العثمانيين والاستعمار الانجليزي، يحاول من خلالها الروائي نجيب محفوظ الجمع بين ما هو تاريخي وبين ما هو واقعي فني بأسلوب كلاسيكي.

اتخذ الروائي نجيب محفوظ من المكان الهندسي تقنية حاول من خلالها أن:" يؤسس الحكي لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة."[4] فيتخذ الروائي من المكان أهمية في سرد أحداث روايته (زقاق المدق) المتمثل في حي شعبي برغم اتساعه إلا أنه يجده فجأة لا يفي بالغرض وكما أنه يحتاج إلى مكان هندسي أكثر ارتباطا بالشخصية من الضيق والمحدودية إلى الاتساع، فيختار قاعات الفنادق والصالونات الخاصة وفي كل مكان حدث خاص يسمح لنا برصد هذه العلاقات الحميمية الحارة.

فلو أخذنا على سبيل المثال (الثلاثية) لنجيب محفوظ نجدها تجربة تنطلق من مكان هندسي يدعى "الجمالية" موقع استراتيجي تتخذ من خلاله جغرافية الرواية.

"الجمالية": حي من أحياء القاهرة الشعبية فيه يوجد "بيت" يعكس عراقة وأصالة شخصية "أحمد عبد الجواد" وعلاقة أفراد أسرته بسكان الحي.اتخذ الروائي من الشوارع والأحياء وهي أمكنة حقيقية:" تجعل القارئ يقوم بعملية قياس منطقي... فكل الأحداث التي يحكيها الروائي تحمل مظهر الحقيقة."[5] فيمثل

"البيت" بوصفه بنية فنية يبدأ من خلالها سرد أحداثه وما يحمله من قيم إنسانية، فسيح وبه بئر عميقة بحجراته الواسعة العالية الأسقف [6].إنه بيت يمثل مكانا للألفة، الحميمية،واللقاء، رمز للطاعة الزوجية وتفاني المرأة في خدمة زوجها: "...فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الأحاسيس تنتظر بعلها حين عودته من سهرته، فتقوم بخدمته متى ينام."[7] فيعكس لنا المكان الهندسي المحدود مثالية الزوجة ومدى إخلاصها في تعاملها مع زوجها " حيث أجادت وتفانت في طاعته"[8].

يشكل "البيت" مرتعا للراحة والنوم مثلما هو الشأن بالنسبة لـ "ياسين" حين قدومه من سهرته وهو في حالة سكر: "... أوى ياسين إلى حجرة النوم وهو على حال من السكر الشديدة."[9] ويعد "البيت" أيضا فضاء تمارس فيه مظاهر الفرح والبهجة مثل احتفال أفراد الجيل المتعاقبة بعرس "عبد المنعم" فكان البيت الكبير القديم جامعا لهم كلهم:"... واجتمعوا كلهم في حجرة الاستقبال..."[10].ويبدو أن نجيب محفوظ لا يريد لشخصياته أن تبقى أسيرة وحبيسة الأمكنة المغلقة لأنها تحد من نشاطها وحركتها وتخلق لديها نوعا من الإحساس بالاختناق والاحتباس، فيولد بداخلها شعور عميق بالرغبة في الانفلات والتحرر من قيد المكان والزمان وانتشارها عبر الشوارع والطرقات لعلها تجد حريتها.

يفرض المكان الهندسي اللامتناهي على الشخصيات القيام بسلوكات وتصرفات معينة تتناسب معه. فمثلا نجد "السيد أحمد" يتجه نحو "طريق النحاسين"، المكان الرابط بين "البيت" و "مسجد الحسين" لأداء صلاة الجمعة، بعدما تركها لمدة بسبب المظاهرات والاحتجاجات السياسية التي تمر بها مصر.[11] يعد "مسجد الحسين" مكانا روحيا مقدسا يحقق التوازن النفسي لشخصيات الروائي بأداء صلاة الجمعة من جهة والقيام بجولات وزيارات للأمكنة المقدسة تبركا بها وتضرعا للخالق سبحانه مثل: " زيارة أمينة لمقام السيد الحسين"، و"السيدة زينب" [12]

فمكان العبادة هو فضاء للتوبة، الصفاء، النقاء والتجرد من كل الخبائث. يظهر لنا ذلك عندما يخرج "كمال" من بيت "جليلة" في منتصف الليل وهو في حالة سكر، فيدب في نفسه إحساس غريب لم يشعر به من قبل عندما وجد نفسه واقفا أمام مسجد "السيد الحسين" فيشعر برغبة ونية في التوبة والتنزه من الخطايا والرذائل والإقلاع عن اللهو والمجون:" عاد في مثل هذه اللحظة يصرح في أعماقه ملتمسا الخلاص من قبضة الشهوات."[13] فتبدأ بعدها الأمكنة في الانساع والامتداد والاختلاف والتنوع لتشمل حي "العباسية" لتصل إلى الأهرام والجيزة أين ينطلق "كمال" مع

أصدقاءه لقضاء وقت في التنزه فتبدأ في الضيق شيئا فشيئا لتصل في نهاية المطاف إلى نقطة البداية "البيت". اختار نجيب محفوظ لـ:"لثلاثيته" مكانا دائريا على طول خط صيرورة الأحداث، حيث كانت حركة الشخصيات دائرية تكون فيها نقطة البداية هي نفسها نقطة النهاية:" ودخلا الدكان الصغير وراح يسين ينتقي ما يريد من لوازم المولود المنتظر... وقال كمال للرجل حين فرغ من ياسين: رباط عنق أسود من فظلك. وتناول كل لفافته وغادرا الدكان وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنبا إلى جنب نحو البيت...[14]

يسجل المكان التاريخي حضورا قويا يجسد لنا رحلة معينة [15] زمنية تجاوزت ربع قرن من التاريخ الحديث يعد أخطرها شأنا وأكثرها ازدحاما بتتابع الأحداث ومجريات الأمور على الصعيدين السياسي والاجتماعي: المظاهرات (1918-1919) واعتقال سعد زغلول، نزول قوات الاحتلال الانجليزي وسيطرتها على جامع الأزهر معقل الثورات.

مزجت كل هذه الأمكنة بين الواقع المادي والتاريخي: الأزهر، السكرية، قصر الشوق، بين القصرين، الأهرام... هي أسماء لأماكن كائنة بالفعل في القاهرة وفي الوقت نفسه لها واقعها التاريخي شاهدا عليها، يأخذ واقع الرواية دوره في رسم العلاقات الاجتماعية من خلال إبراز حركيتها في مجالات الأمكنة ذات الطابع الاجتماعي، بوصفه للبيوت والمساكن وما تزخر به من فلسفة هندسة العمارة ومظاهرها مثل: البئر، غرفة الفرن، سطح المنزل، عاداتهم وتقاليدهم، فالرجل له الشارع والمرأة لها البيت."[16] فيبدو المكان متميزا بصفاته ودوره في احتواء الأفعال والأحداث والتصرفات ليعبر عن مدى ارتباطه بالسرد مساهما في بناء وتشكيل فضاء الحدث.

2.6 المكان في روايات صنع الله ابراهيم:

نعيش تجربة جديدة من خلال روايات صنع الله إبراهيم عندما يتخذ من المكان " المدينة" في رواية "تلك الرائحة "،أول عمل روائي يعرف النور سنة 1966، تدور أحداث النص حول يوميات الرّاوي عندما كان في السجن قضى فيه خمس سنوات في يوم خروجه يضطر إلى قضاء ليلة أخرى في الزنزانة بسبب عدم وجود مكان يذهب إليه. وفي الصباح تذهب إليه أخته بعد أن استأجرت له غرفة في القاهرة. فيعود بذاكرته إلى الوراء بعد خروجه ليستعيد الأحداث التي عاشها في الزنزانة برفقة من كانوا يتقاسمون معه الحيز الضيق. تجسد الرواية أرضية للصراع النفسي بين أفراد المجتمع متمثلة في فكرة القوي يأكل الضعيف، محاولا الكشف عن الجانب الخفي لنفسية الفرد، تجسدها مشاهد عن مأساة ضياع الذات في أمكنة مختلفة وتيهان لا حدود له يلخصه لنا سؤال الضابط للرّاوي وهو يستعد لخروجه من السجن بقوله:" إلى أين ستذهب؟ أو أين تقيم؟[17]" فأجابه:" لا أعرف، ليس لي أحد[18]" إجابة تعكس شعور الذات بنوع من الغربة من سجن العذاب إلى فضاء المدينة المصير المجهول،

التي لا يعرف فيها أحدا. يطغى على الرواية حدثان: الأول يحمل بعدا دراميا المتمثل في القتل في السجن، أما الثاني فهو عام يحمل طابعا وصفيا الذي يفترض وجود الراوي العالم بكل شيئ[19]."

تصور "تلك الرائحة" ظاهرة السلوك العنيف التي حيرت الرّاوي وهو في السجن من خلال مشهد اعتداء شاب ضخم الجثة على مجنون بالضرب حتى أرداه قتيلا. والغريب في الأمر أن السجناء يقفون متفرجين دون أن يحركوا ساكنا لنجدته.والعجيب في الموضوع، يسخرون منه:"... وقال المجنون وهو يرفع ساعده ليحمي وجهه لا تضربني وانهالت ضربات الشاب عليه، وسمعت صوت عظامه تطقطق وسقط في مكانه وهو يلهث وضحك الآخرون."[20] إنه مشهد من مشاهد العنف والتعدي على الآخر دون سبب أو مبرر، حدث يجسد لنا الحياة كيف تحولت من البساطة إى التعقيد ومن الأمن إلى الخطر. جسد السجن بوصفه بنية مكانية خطر الموت الذي بات يهدد حياة الإنسان في كل الأزمنة والفضاءات،فقتل الشاب الضخم للمجنون مؤشرا بيّنا على الموت التي يهدد سلامة الذات ويتربص بها في كل حين. تتسم الشخصية في الرواية أنها مجهولة الهوية والعنوان، يغلب عليها طابع الغموض والشعور الدائم والمستمر بالخوف والحذر لدرجة أنها اعتادت على الأماكن الضيقة، لا تخرج منها إلا ناذرا وإذا خرجت للشارع زادت حيرتها وغرابتها لما رأته من سلوكات وتصرفات الناس الغريبة، عنف،قتل وانحلال للأخلاق... فكان الراوي –البطل- يشعر بنوع من الضعف والانهزام محدثا نفسه قائلا:" أنت قوي بالناس، أما بمفردك فأنت ضعيف[21]." الخيبة والشعور بالاحباط يراود البطل، شعور رهيب يسكن داخله يدفع به الانتقال من مكان إلى آخر باحثا عن الاستقرار لكن بدون جدوى.

تقدم الرواية نموذجا لبحث الذات عن وجودها وموقعها الطبيعي في المجتمع يتجلى في:" طموحها الدائم لتصوير الواقع، عكسه بطريقة ما عبر استعادة علاقات[22]." تصور الرواية حالة بحث الذات الشاقة بعد خروجها من السجن عن الأهل والأصدقاء والأحباب الذين تركهم خلفه، ذات انهزامية، ضعيفة تسبح في فضاءات وأمكنة تائهة تبحث عن مستقر لها فهي لا تكاد تبقى مدة أطول في مكان واحد ولعلها الميزة التي وسمت معظم روايات صنع الله إبراهيم حيث:" تبدو لنا الشخصيات في وضعية الداخل إلى المكان والخارج منه."[23] فالروائي منذ الوهلة الأولي يخبرنا بأنعلاقته بالمكان في نصه تكاد تكون قصيرة بحيث يرمز عدم بقاءه مدة أطول في المكان هو تفسير لفشله في حياته اليومية حب ضائع، مستقبل مجهول مما سبب له عدم استقراره النفسي:" إذ يظل البطل في كامل الرواية يبحث عن علاقته القديمة وهي علاقات قرابة ومباشرة أوغير مباشرة وعلاقات صداقة وعلاقات عابرة وعلاقات حميمة وعلاقات حب وعلاقات عمل وعلاقات مع السلطة."[24] شكلت عملية البحث هذه رحلة شاقة للراوي هي: " بمثابة إكتشاف للمكان من جديد في حد ذاته."[25] فتغيب بذلك الشخصية المحورية تاركة مكانها لنثار من الشخصيات التي لا وجود لها في نموذج بشري متجانس يمكن إعادة

إنتاجه إلى ما لا نهاية.[26] ليصدم الراوي في النهاية بما وجده من تغير رهيب طرأ على المدينة وأهلها لم يستطع تقبله.

تقوم البنية المكانية في "تلك الرائحة" برمزيتها على التأكيد والإشارة إلى ما آل إليه البطل-الرّاوي – من عدول وانزياح في الأخلاق الذي أثر على حياته فأصبح يعيش النقيض على كل المستويات كأنه الموت البطيئ.

يمثل كل من السجن والغرفة والمدينة بنيات مكانية تدين التصرف المشين للفرد وفضحه للعيان:" فليس هناك جدوى على الإطلاق في الإبتعاد لحل المشاكل المطروحة[27]." إنه استسلام للذات أمام مشاكلها تبدو مقهورة لا تمتلك القوة والشجاعة في مواجهة المصاعب والتحدي لفرض وجودها وكيانها.

لقد اتخذ الروائي من المكان الضيق والفسيح أداة فنية عبر من خلالها عن مأزق الذات التائهة في بحر من الظلومات يتقاذفها الشك والريب والخوف من المستقبل وعدم الاستقرار والضياع.إن ما يميز رواية "تلك الرائحة" نجدها:" تتشكل كنص كلي محير يدفع إلى القلق أكثر مما يؤدي إاى الارتياح."[28] فيدفع بنا المتن بشخصياته وحدثه وأمكنته إلى البحث عن منتهى قلق الذات ورحلتها في النص التي لا تنتهي تتخبط بين زمانين الماضي السعيد بذكريات الطفولة والأصدقاء والعلاقات الحميمية وزمن حاضر يعاني فيه الفرد في المجتمع المصري حالة من السلوك والأخلاق الغير السوية التي أحدثت شرخا وتصدعا في العلاقات الاجتماعية. وظل النص يحمل في متنه أحلام ورغبات الراوي المسكوت عنها يريد تحقيقها ولم يصرح بها.

3.6 المكان في روايات محمد زفزاف:

نفس التجربة يخوضها الروائي في المغرب الأقصى تتجلى لنا في خطابات مشفرة تستدعي فكها وتحليلها وتبين رموزها. محتواها تجريبي يتسم بالجدة يحاول إقناع عقول القراء المثقفين وتتضح لنا معالم رؤيته هذه من خلال روايته: "المرأة والوردة" (1987) أو كما يسميها صاحبها بـ: "تجربة الصعلكة " حيث يقول: "أما تجربة الصعلكة هده فهي تتجلى في رواية المرأة والوردة... ربما كانت مستوحاة من حياتي التي عشتها في أواسط الستينات وقد استفدت منها كثيرا."[29] يقر الروائي بأن النص يحكي عن بعض جوانب من حياته فهو يحاول أن يروي لنا تجربته ومغامراته في الحياة إنه موقف ورؤيا الكاتب عن الحياة وكيف يريده أن يكون.

تبدأ أحداث الرواية بنبذ البطل للمكان "الدار البيضاء" هذه المدينة الكبيرة الواسعة بشوارعها وطرقاتها وعماراتها الكبيرة والمتعددة فهو يبدي استياءه وقنوطه منه ويشعر بأن هذا المكان غريب عنه:" فلا مكان لك ولي هنا في هذه المدينة الكبيرة."[30] تعيش الذات حالة من الغربة والاغتراب،

يكتنفها شعور بالضياع لا تعرف مستقرا لها بحيث يمثل النص رحلة الذات في البحث عن منتهى لها تنعم فيه بالحب والأمن والأمان.

تجسد الرواية حالة من التمرد بطلها صعلوك يريد أن ينتمي بأي شكل من الأشكال إلى المجتمع الأرسطوقراطي وطبقة النبلاء يلهث وراء الثروة والعيش الهنيئ جاهدا نفسه لتغيير نمط حياته من البؤس والفقر المتقع إلى الثراء والمجد. وفي سبيل ذلك تحيا الذات حالة من الوهم والحلم لتعيش واقعا مزيفا وزمنا غير زمانها. يعرج بنا السارد عبر الذاكرة على:"منظومة هندسية واسعة متعددة الأشكال ذات وظيفة سوسيولوجية واقتصادية."[31] فهي:" الفضاء الحضري مسرح المغامرة البشرية تعبر عن أسلوب حياة مجتمعاتنا وتروي ماضي هذه المجتمعات وتعلن مسبقا عن تحولاتها[32]." ومن خلال فضاء المدينة يسرد لنا الروائي أحداث تصور غربة البطل في وطنه ورغبته القوية في الهجرة والانتقال من مدينة طنجة الساحلية إلى الضفة المقابلة مدينة (طيري مولينوس) الأسبانية أو كما تسمى بمدينة الأثرياء هربا من التدهور ورداءة العيش وتدني المستوى المعيشي والأخلاقي بالمغرب وتحديدا مدينة الدار البيضاء التي تشهد حالة من الزيف المكاني: "يتسع لاستيعاب جدل وصراع التناقضات بكل أطرافها ومحاورها[33]."فلا تبدو له المدينة كما يريدها وتحولت إلى مكان، يكون قد: " جرى وسيجري به شيئ ما ومجرد الإشارة إلى المكان كافية كي تجعلنا ننتظر قيام حدث ما.[34]" تمثل المدينة المكان السلبي المنبوذ، مأساة الغربة في الوطن الأم، مستوى معيشي مترد، فقر، جوع، وحرمان. إنها وضعية حرجة تزعزعت النفس البشرية لها وجعلتها تنظر إلى الدنيا والمستقبل بعين يائية ومتعبة وقلب حزين ملئ بالصراخ والأنين والوجع.

وتتحول المدينة بكل ما تحمله من قيم سلبية إلى مكان طارد يدفع بالبطل إلى البحث عن مكان بديل لتبدأ بذلك مغامرة الصعلكة. أخذ الروائي على عاتقه أمر رسم حالة المغرب الأقصى وما آلت إليه البلاد من هزات اجتماعية، اقتصادية وسياسية. أثرت على الجانب النفسي للمواطن المغربي وانتشار ظاهرة الزنا لضمان القوت اليومي. فاتخذت العلاقة الجنسية مظاهر متعددة في أماكن مختلفة مثل: الفندق، السرير، الحديقة، الغابة...:" وضعت سوز كل جسدها الآن تحت تصرفي شعرت بالدفء والحرارة وكل شيء، وكل شيء ثم وكل شيء."[35] إن تعدد الأمكنة واختلافها بين الاتساع والضيق وبين مكان وضده هي ضرورة تفرضها طبيعة الموضوع، التي تفرض يدورها نوعية وصفة المكان الذي سوف تحركه الأفعال والسلوكات المميزة للشخصية. ويقر بذلك الروائي حينما يقول:"... طبيعة الموضوع هي التي تفرض الحيز الذي يكتب فيه فإذا استنفذ الحيز فإنني أتوقف وأحاول أن أصنع خاتمة... خاتمة تفرضها العملية ككل لهذا النص."[36] أما المكان الضيق فهو رمز للضجر الذي يسبب الانزواء والانطواء، كلما ارتفعت حدة القنوط واشتدت الأزمة، نراه يختار غطاء السلحفاة مبتعدا عن وحشية العالم الخارجي المضيء بكل ما يحمله من متناقضات ومفاجآت: " أنزوي مثل السلحفاة أدخل

في العالم ألعن كل النساء وأكره العالم."[37]إن المفهوم المنسجم مع قوقعة السلحفاة يبلغ حدا من الوضوح واليقين ويجعل الروائي يندفع باتجاه هذا المكان الهندسي الطبيعي الذي تكمن فيه صفة الجمالية. تبدعها الحياة فهي لا تتسم بالفوضى التي تميز معظم المرئيات. إنها شكل مميز واضح للعيان[38]. فالقوقعة تجسيد للهندسة الحيوانية ولهذا فهي واضحة ومتمايزة بخطوطها الجميلة الملتفة، فتبلغ صورة الالتفاف القوقعي حدا من الروعة والجمال الذي يمثل التفاف "الإنسان حول الذات."[39]جسد لنا محمد زفزاف من خلال الأمكنة المختلفة عن حبه لأشياء وكرهه لأشياء أخرى، من خلال العلاقة الجنسية كونها إحدى ضروريات الوجود والتواصل. أما الكره فيتمثل في نبذة للمدينة بكل ما تحمله من معان وصفات وبحثه عن مكان جاذب بديل.

4.6 المكان في رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة:

نعيش تجربة جديدة مع الروائي الجزائري عبد الحميد بن هدوقة بنصه"ريح الجنوب" 1971 حيث تدور أحداث القصة في الريف، مكان طبيعي، قرية رعوية صغيرة تدعا "المنصورة" تقع في أعالي الهضاب،يقطنها أحد الأثرياء يسمى "عابد بن القاضي" صاحب الأراضي الفلاحية وقطعان الأغنام برفقة ابنته "نفيسة". تبدأ الأحداث تحديدا في سوق القرية في يوم الجمعة صباحا هذا المكان الصغير المتسم بالحركة والنشاط والانتعاش، يشكل مصدر عيش أهالي القرية.

يقابل "عابد بن القاضي" شخصية "رابح " الراعي الذي يشتغل عنده في حقوله وبساتينه ويحرس له غنمه.

يشعر "رابح " بنوع من الاستعباد والاستغلال في أرض ليست أرضه، فلا يجد طريقة تنسيه همه وحزنه سوى ألحان نايه الحزينة.

تؤدي المصادفة دورها في تطور وتسارع الأحداث وتعقيدها بمجرد أن يرى "مالك" لأول مرة "نفيسة" ابنة "عابد إبن القاضي" هذا الأخير الذي يقرر زواجهما، فترفض "نفيسة" العرض لكن ماذا عسى أن تفعل أمام قرار وجبروت السلطة الأبوية.؟ فتنزوي في غرفتها حزنا وأسا على ما أصابها. تحتبس أنفاسها ويضيق صدرها فتتحول الحجرة إلى سجن يكتم على أنفاسها، فيفجر المكان المغلق في »نفيسة " الرغبة في التمرد وإعلان العصيان والانشقاق فتعقد العزم على الهروب من البيت باتجاه دار عمتها الجزائر العاصمة. فتخرج الفتاة إلى الغابة فيجدها "رابح الراعي" ملقاة على الأرض مغشيا عليها تصارع لدغة ثعبان لينقذها من موت أكيد فيحملها إلى خيمة والدته. فيعلم عابد ابن القاضي بفرار أبنته نفيسة وأنها موجودة عند أم رابح الراعي فيخرج إلى الخيمة وبمجرد وصوله إلى المكان يشتد الصراع بينه وبين رابح فلم تستطع الأم رؤية ابنها ممددا على الأرض متأثرا بجراحه التي تسبب له فيها مالك بن القاضي فتهوي عليه بضربة فأس على رأسه.

أخذ المكان في الرواية يتأرجح بين الضيق والاتساع والانغلاق والانفتاح، ويكتشف القارئ أن متن الرواية كان مشيدا على غاية التعامل المميز مع أمكنة الرواية التي تتضمن إشارات سياسية تعكس واقعا اجتماعيا متحول تتجلى من خلاله علاقات رامزة بين سياق النص الداخلي والاطار الخارجي للواقع.[40] المتمثل في فكرة مصادرة الأراضي الزراعية والثورة على عهد الإقطاعية والبورجوازية وكيف تتجلى لنا رغبة التغيير والثورة على الوضع المتردي في سلوكات شخصية "رابح الراعي" وعزمه على التخلي عن مهنة الرعي واشتغاله حطابا، نفس الرغبة والشعور بالثورة وتغيير الوضع، تظهر لنا في تصرفات "نفيسة" عندما خالفت قرار والدها برفضها الزواج من "مالك" وهروبها من البيت إلى العاصمة بحثا عن تقرير مصيرها.

اختار الروائي "الخيمة" على بساطتها بوصفها مكانا يدل على الانتماء والهوية تعكس أصالة الجزائري وتمسكه بهويته وتاريخه. فالخيمة هي بنية مكانية تجسد لنا مأساة شعب بأكمله يرفض الذل والقهر والاستعباد، معلنا سخطه ورفضه للوضع والبحث على مستقبل أفضل.

7. خاتمة:

ولعل أهم ما يمكن استنتاجه أن النص العربي بنية فنية تحمل بداخلها نواة الرفض والتمرد على النص الكلاسيكي معلنة بذلك بداية عهد جديد يتطلع إلى التغيير في أشكال التعبير، وفي قواعد الإحالة على الواقع،وما الرواية العربية سوى طفرة وإرادة قوية تحمل طموحات وفلسفة التجديد التي تتمثل في جملة من الخصائص والمميزات نوردها كالآتي:

- التركيز على الأشياء والأمور الصغيرة التي تحظى باهتمام الروائي من خلال الوصف حتى تصير موضوعا جوهريا.

- اعتماد الخيال الواسع في الوصف وسرد الأحداث وفسح المجال للأحلام والمناجاة الداخلية معبرة عن الإنسان وصراعه الدائم في الوجود.

- الاهتمام بالجسد الأنثوي، بالوصف والتأمل في جماليته من حيث أنه مكان طبيعي ساحر يمثل رمزا للخصب والنماء.

- اتسام الأمكنة بالتعددية والضيق والاتساع التي تمثل في مجملها فضاءات مفتوحة على تحركات وانتقال الشخصيات.

- التركيز على فضاء المدينة الذي يجسد الصراع النفسي للإنسان المتمثل في القلق الدائم والضجر الذي يعبر عن قنوط ويأس فيبدأ في البحث عن مكان مغاير وبديل.

الهوامش و المصادر و المراجع:

1 أميرة حلمي مطر: مقدمة في علم الجمال، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1972، ص10.
2 ينظر أحمد كمال زكي: الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، بيروت، لبنان، 1989،ص45.
3 حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،ط3، الدار البيضاء، 2000م،ص65.
4 حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء،2000م، ص 65.
5 حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص65.
6 نجيب محفوظ: الثلاثية بين القصرين، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون ومؤسسة طاسيلي للنشر والتوزيع، (د.ط)، 1989، ص7.
7 بين القصرين، ص7.
8 بين القصرين، ص 10.
9 نجيب محفوظ: السكرية، المؤسسة الوطنية للفنون ومؤسسة طاسيلي للنشر والتوزيع، 1989ص 52.
10 السكرية، ص 137.
11 السكرية، ص 199.
12 السكرية، ص 223
13 السكرية ص 247.
14 السكرية ص 383
15 ينظر أحمد سيد أحمد: الرواية الإنسيابية وتأثيرها عند الروائيين الغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989 ص 134.
16 نجيب محفوظ: قصر الشوق، المؤسسة الوطنية للفنون ومؤسسة طاسيلي للنشر والتوزيع،1989 ص7-10.
17 صنع الله ابراهيم: تلك الرائحة، ص29
18 تلك الرائحة، ص29

19 سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، ط4، الدار البيضاء، المغرب2005م، ص284.

20 تلك الرائحة، ص2.

21 تلك الرائحة، ص47.

22 إلياس خوري: الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت، لبنان 1983م،ص144.

23 محمد الباردي: الرواية العربية والحداثة، دار الحوارللنشر والتوزيع، ط2، سوريا، 2002م،ص233.

24 محمد الباردي: الرواية العربية والحداثة، مرجع سابق، ص 234.

25 محمد الباردي: الرواية العربية والحداثة، ص234.

26 ينظر فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية، ص293.

27 سامي سويدان:أبحاث في النص الروائي العربي، دار الآداب للنشر والتوزيع،ط1، بيروت لبنان، 2000م،ص70.

28 سامي سويدان: أبحاث في النص الروائي العربي، دار الآداب، ط1، بيروت، لبنان 2000م،ص239.

29 محمد زفزاف: المرأة والوردة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 1987.

30 جهاد فضل: أسئلة الرواية،الدار العربية للكتاب،(د.ت)،(د.ط)، ص193

.31 مصطفى الكيلاني، الرواية والتأويل، سردية المعنى في الرواية العربية، أزمنة النشر والتوزيع، ط1، عمان الأردن، 2009، ص53.

32 محمد داود، المدينة في الرواية الجزائرية، الفضاء القسنطيني في رواية الزلزال، مجلة إنسانيات، العدد13 جانفيأفريل 2001، ص2.

33 رزاق ابراهيم حسين، المدينة في القصة العراقية، دار الحرية للطباعة (د.ط)، بغداد العراق، 1984،ص106.

34 صالح إبراهيم، المكان ودلالته في رواية مدن الملح لعبد الرحمان منيف، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت لبنان 2003،ص9.

35 محمد زفزاف: المرأة والوردة، ص2.

36 المرأة والوردة، ص55.

37 جهاد فضل: أسئلة الرواية، ص 195.

38 جهاد فضل: أسئلة الرواية، ص 60.

39 ينظر غاستون بشلار: جمالية المكان، ترجمة غالب هلسا، كتاب الأقلام، 1980،ص111.

40 أنظر صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، دار الصباح، ط1، الكويت 1992م، ص18.